تجليات الخطاب الكانطي في الفكر الفلسفي الراهن

Manifestations of kantian discourse in current philosophical thought

عبد الحليم بن حجبة *	جامعة حسيبة بن بوعلي. الشلف.

الإرسال: 29/ 03/ 2021 **القبول**: 17/ 04/ 2021 **النشر**: 14/ 05/ 2021

أمام أصالة المشروع الفلسفي الكانطي وحيوية البارادیغم النقدي نكتشف دائما أن الكانطية لم تكن مجرد لحظة عابرة في التاريخ، بل حضورا مستمرا رافق التحولات الكبرى للفلسفة، هذا ما نسعى إلى توضيحه في هذه الدراسة التي نحاول من خلالها أن نقف على تجليات الخطاب الكانطي في الفلسفة الراهنة.

الكلمات االمفتاحية:

كانط; الخطاب; الراهن; الفكر المعاصر; النقد.

مقدمة:

تجليات الخطاب الكانطي في الفكر الفلسفي الراهن من هذا العنوان الطموح سنحاول أن نتلمس حضور الخطاب الكانطي، في الحوار الفلسفي الراهن حتى نكتشف جليا، أن الفلسفة الكانطية لم تكن مجرد لحظة عابرة في تاريخ الفلسفة، بقدر ما كانت حضورا قويا رافق التحولات الكبرى للفلسفة، وفضاء فكريا خصبا لفلاسفة التفوا حول البراديغم النقدي، رغم كل التغيرات الفلسفية والثقافية والاجتماعية التي تفصلنا عن "كانط".

لعل الدافع القوي الذي حفزنا إلى هذا العنوان يرجع إلى سببين: أولهما دهشتنا إزاء كثافة حضور الفلسفة الكانطية في الفكر الفلسفي المعاصر، كما تبين لنا ذلك، رغم ما يحتوي هذا الحضور من اختلافات عديدة و فورقات متفاوتة حول قراءة وتأويل الخطاب الفلسفي الكانطي.

وثانيهما هو حيوية البراديغم النقدي على فرض وجوده أمام إشكاليات الوجود الإنساني، فأصالة التأسيس الكانطي للمشروع الفلسفي جعله يصنف ضمن الفلسفات الخالدة، إن كنا لا نبالغ في ذلك، إذ لا يكاد يوجد موضوع يتعلق بمجال المعرفة الإنسانية لم يمتد إليه فضول" كانط"، و هذا بشهادة الكثير من الفلاسفة. فقد اعترف « آلان رونو" أحد المختصين في دراسة

"كانط" في كتاب صدر سنة 1997 بعنوان "كانط اليوم" بالحضور الأساسي لنقدية "كانط" في الفلسفة المعاصرة حين قال : تظل النزعة النقدية اليوم مرجعا فلسفيا أساسيا وليس هذا وحسب، بل ظلت دائما كذلك منذ نهاية القرن الثامن عشر ورافقت تحولات الفلسفة»(1)، كما نجد " ادموند هوسرل" هو الآخر يبجل "كانط" في أكثر من مناسبة ويحمد له ما خلفه من أثر، « فقد أكد هذا الأخير في دراسة له حول "كانط" بمناسبة مرور مئتي سنة على ولادة "كانط"، بجامعة "فريبورغ " بتاريخ 10 ماي 1924، أنه لا يمكن لأي كان ينتمي للعصر الحديث أن ينفلت من تأثير "كانط" بما في ذلك من يعارضونه بشدة، يقول : إنها لحقيقة شبه عادية أن نلاحظ أن لا أحد في عصرنا هذا بما في ذلك من يعارض الكانطية بشكل جذري يمكنه أن يستثني ذاته من الخضوع لتأثير هذا الفكر القوي»(2)، ولم يكن "آلان رونو" و"هوسرل" وحدهما من اعترفا بأصالة "كانط" داخل الحداثة الفلسفية، فقد سبقهما " شوبنهاور" إلى ذلك حين قال: « لقد أحدث كانط داخل الفلسفة ثورة كبرى لا نظير لها، فقد وضع حد لسيادة السكولائية(3) ودشن أخيرا داخل الفلسفة مرحلة جديدة»(4).

إن اعترافات من هذا القبيل تؤكد بدون شك الاهتمام الراهن والواسع بالفلسفة الكانطية، مما يجعلنا نتساءل عن سر هذا الحضور القوى و الفريد من نوعه، فهاجسنا الرئيسي يتمثل في محاولة إبراز بعض أشكال تعامل الحوار الفلسفي الراهن مع فلسفة كانط ، مركزين على تحليل موجز لبعض المسائل التي تتقاطع مع النموذج الإيتيقي الكانطي، فنحن لا نود تقديم عرض شامل لكل أشكال تعامل الفكر الفلسفي الراهن، مع فلسفة "كانط"، لا لأن مثل هذا العمل يفوق طاقتنا فقط، وإنما لاعتقادنا أن اختبار قدرات البراديغم النقدي عبر تفاعله مع الفكر الفلسفي الراهن يحتاج إلى جهد أكبر وبحث أوسع يصلح لأن يكون عملا مستقبليا إن شاء الله.

(1) عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كانط في مواجهة الحداثة بين الشرعية الأخلاقية والشرعية السياسة، د ط، إفريقيا الشرق، 2010، المغرب، ص 57.

(2)عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كانط في مواجهة الحداثة بين الشرعية الأخلاقية والشرعية السياسة، المرجع نفسه، ص 57.

(3) السكولائية (scolastique): التعليم الفلسفي و اللاهوتي التابع للقرون الوسطى و المؤسس على التقليد الأرسطي، كما فهمه أهل اللاهوت.

(4) المرجع نفسه، ص 58.

ولكن ما هي النقاط والمسائل التي يتقاطع فيها الفكر الفلسفي الراهن مع الخطاب الفلسفي الكانطي؟ وما هي المستجدات التي أحدثتها الثورة الكوبرنيكية الكانطية والتي مازال الفكر المعاصر ينبض من خلالها؟

1 ـ العقل حدوده ومستوياته:

تظهر راهنية المشروع الكانطي الفلسفي في ارتقائه بالعقل إلى درجة وظيفية توليفية عليا للمعرفة والممارسة الأخلاقية، فإذا كانت فلسفة التنوير قد رفعت العقل إلى درجة أرقى فجعلته قيمة القيم، عندما أكدت الثقة في قدراته على تطوير المجتمع، فإن "كانط" عكس قيمته أكثر في الفلسفة العملية(1). عندما أقر لأول مرة بوجود عقل عملي قائم بذاته ومستقل تماما عن العقل النظري، موضحا قصور العقل النظري على تأسيس القيم الأخلاقية، «فداخل اللحظة الكانطية أصبح التفكير في العقل البشري يتم انطلاقا من الوعي بحدوده، وهذا ما يقتضي نقدا جذريا للعقل بمختلف ملكاته»(2)، وكأننا مع "كانط" نشعر لأول مرة بضرورة النظر في طبيعة العقل، من حيث فحص طاقته الذاتية ومجال قدراته على تأسيس المسائل النظرية و العملية، ومن حيث النظر في مستوياته وطبيعة اهتماماته، من هذا المستجد الفلسفي، يمكن أن نكتشف كيف تبلورت مشكلة العقل، قدراته ومستوياته كمسألة فلسفية جوهرية في تاريخ الفكر الفلسفي، لتصبح عنوانا حاضرا في أكثر من موقف فلسفي راهن.

إذا كان جل الفلاسفة قبل "كانط" تكلموا عن عقل واحد ينتقل من مشكل إلى آخر حسب وعي الإنسان، فلم يفصل بين مستوياته وقدراته، حيث بقي مضمون هذا المفهوم محتفظا بمعنى قار، فإنه مع "كانط" حدث الفصل بين العقل النظري والعقل العملي، ولعل هذا التمييز له ما يبرره، ولو أننا لا نود الوقوف عند هذه المسالة لأن همنا الأساسي هو كشف قيمة هذا الفصل و انعكاساته على الفلسفة الراهنة، ولكن لا بأس من الإشارة إلى بعض الدوافع فيما يلي:

ـ إن تميز "كانط" بين القيمة الأخلاقية و الوجود يعتبر دافعا على فصله بين العقل العملي والعقل النظري، فالوجود في نظر "كانط" هو موضوع العقل النظري، بينما القيمة الأخلاقية فلا يمكن إستنتاجها من الوجود، وتأسيسها على العقل النظري الخالص.

(1) محسن الخونى، التنوير والنقد منزلة كانط في مدرسة فرانكفورت، الطبعة الثانية، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2009، ص 48.

(2) عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كانط في مواجهة الحداثة، مرجع سابق، ص 69.

ـ عجز العقل النظري وعدم قدرته على تحديد المسائل الأخلاقية والميتافيزيقية بسب محدودية قدراته، وتناقضه عند الخوض في مثل هذه القضايا، فالعقل النظري قاصر، متناه وهذا التناهي يمنعه من التوصل إلى حدس ذهني واضح، والحال أننا بحاجة إلى إدراك واجبنا الأخلاقي بصورة واضحة.

ـ إننا لا نحتاج في تأسيس القيم الأخلاقية، إلى معايير طبيعية أو معارف علمية أو تفكير معمق، ذلك أن العقل في المجال العملي لا يعلل ولا يحاجج.

إن الاكتشاف الرائع الذي توصل إليه "كانط" يظهر بدون شك في مشروعه النقدي الذي يقوم على اختبار قدرات العقل المعرفية والعملية، فإن «كان صاحب الفلسفة النقدية قد ظل يؤمن بنزعة عقلية، إلا أن نزعته العقلية قد اتسمت بطابع خاص، جعل من الفلسفة كلها عملية نقد ذاتي، يقوم فيها العقل بالتعرف على مداه و حدوده ومضمونه»(1).

إن أصالة المشروع النقدي الكانطي تظهر فعلا في المحاولة الجادة التي قام بها كانط لأول مرة عندما عمد إلى اختبار قدرات العقل، فالمهمة الفلسفة الكانطية لا تقتصر فقط على شرح دستور العقل وتحديد معالم المعرفة الإنسانية، بل تمتد إلى التمييز بين ميتافيزيقا الطبيعة وميتافيزيقا الأخلاق، بين الاستعمال النظري والاستعمال العملي للعقل، إنه الاتجاه نحو مساءلة العقل عن حدوده وقدراته، ورسم «جغرافيا العقل الإنساني، بتوضيح موضوعاته وطبيعة اهتماماته، أي مصالحه»(2)، فمن الأطروحات الكبرى التي نبهنا إليها كانط، هي القول بوجود مصالح مختلفة للعقل حسب اهتماماته واستعمالاته المتنوعة.

عندما «نقرأ "نقد العقل الخالص" لكانط من البداية إلى النهاية نفهم أن مشروع النقدية منذ البداية هو توضيح مختلف وظائف العقل البشري حسب ما تتطلبه المصالح الأساسية الواضحة للإنسانية أي المصلحة المعرفية والمصلحة العملية والمصلحة الميتافيزيقية»(3). لكن هل فلسفة التمييز بين مستويات العقل، واستقراء مصالحه المختلفة، سؤال فلسفي خاص بكانط ؟ أم هو سؤال استمر حضوره في الفكر الفلسفي الراهن؟

(1) زكريا ابراهيم، كانط أو الفلسفة النقدية، د ط، دار مصير للطباعة، الكويت، د س، ص 200.

(2) رجاء العتيري، في طبيعة العقل، الطبعة الأولى، دار سحنون،تونس، 1999، ص ص 86/85 .

(3) المرجع نفسه، ص 84.

إن مسألة التحديد الذاتي للعقل من حيث مستوياته ومصالحه، فكرة مازالت تستقطب اهتمام الفكر الفلسفي الراهن، فهذا التميز الذي أحدثه "كانط" في مستويات العقل مازال «صالحا مع إدخال أنواع أخرى من التميز، مثلما فعل "هابرماس" عندما ميز بين عقل وسائلي و عقل عملي وعقل تواصلي وتحريري»(1)، ومثلما فعل "باشلار" عندما تكلم عن العقل العلمي كعقل نظري من جهة و الفكر العملي الذي يبحث عن الحلول العقلانية في مجال القانون و السياسة و الأخلاق من جهة أخرى.

يعترف الفكر الفلسفي الراهن بوجود مصالح متميزة للعقل الإنساني، فـ"هبرماس" في كتابه "المعرفة و المصلحة"، راح يصنف المعرفة العلمية المرتبطة بالمصلحة البشرية إلى ثلاثة أنواع هي المصلحة المعرفية والمصلحة العملية والمصلحة التحريرية، أما "باشلار" من جهته فقد أخذا «مفهوم المصلحة في الاستعمال العادي والواسع، فقابل بين المصلحة النفعية الذرائعية والمصلحة النظرية المعرفية والفكرية البحتة»(2).

من الواضح أن الخط الذي شقه "كانط" نحو مساءلة العقل عن مدى حدوده وقدراته، مستوياته وطبيعة مصالحه، لم ينته حضوره، ولو أن طرق المساءلة والاختبار لهذا العقل تعددت دلالتها في لغة الخطاب الفلسفي الراهن، وكأن «هذه الفلسفة العقلانية النقدية المنفتحة تملك قدرة على إثارة الفكر وتوليد الأفكار بحيث يصبح التفاعل معها واستلهامها منبعا خصبا للمفكرين والفلاسفة»(3).

2 ـ النقد بين التأصيل الكانطي وجدلية الحداثة:

إن راهنية "كانط" تبدأ أيضا في اللحظة التي قرر فيها الانخراط في صيرورة الحداثة بمساءلتها وممارسة النقد عليها، فقد بلغت الفلسفة النقدية مع "كانط" «قمة الأنوار في ألمانيا وأحدثت ثورة شبيهة بالثورة الكوبرنيكية في تصور العالم، وهذا ما صرح به "كانط" شخصيا سنة 1781، عند صدور "نقد العقل الخالص" معتبرا أن هدفه من هذا العمل هو إحداث تغير جذري

(1) المرجع نفسه، ص 92.

(2) رجاء العتيري، في طبيعة العقل، المرجع نفسه، ص 92.93.

(3) جمال محمد أحمد سلمان، انطولوجيا الوجود ايمانويل كانط، د ط، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2009، ص09.

في طريقة التفكير»(1)، إنها مهمة النقد التي تأصلت مع "كانط" وأصبحت شعارا للفلسفة ومنهجا لها، وهذا «ما سيغير جذريا معنى التفلسف. لن يكون مجرد شك كما كان الأمر عند "ديكارت"، ولا مجرد تعبير عن الرأي المشترك عما يحدث داخل الطبيعة البشرية كما كان الأمر عند "هيوم"، سيصبح تأصيلا جذريا لكل المفاهيم التي بواسطتها يدرك الإنسان راهينيته»(2)، هكذا يصبح النقد مع "كانط" جوهر التفلسف الذي نؤسس به لكل تجربة ممكنة نظرية أو عملية، ونرقى معه إلى مستوى كوني ميتافيزيقي ميدانه العقل.

أمام هذا التأسيس الكانطي المتعالي للعمل النقدي «دشن كانط حداثته وحداثة كل سؤال فلسفي جديد»(3)، كما أنه مهد الطريق أمام الكثير من النظريات الفلسفية التي اجتهدت في توظيف النقد شعارا ومنهجا لها، «فقد سعى فلاسفة مدرسة فرانكفورت إلى تقديم النظرية النقدية التي يجتهدون في بنائها وتوضيحها كوريث شرعي للعقلانية الكلاسيكية منذ كانط الذي يمثل بالنسبة لهم الطبقة الأخيرة من الأرضية الفلسفية السميكة التي يقفون عليها»(4) لأنهم عند ما يمارسون النقد ويتمسكون بالعقل، فإن الخلفية التي يرتكزون عليها غالبا ما تعود إلى الفلسفة الكانطية، بوصفها المرشد الحكيم لفلسفة الحداثة، فلو قمنا مثلا «بربط مباشر بين النقد كمفهوم رئيسي في النسق الكانطي، والنقد كصفة جوهرية للنظرية النقدية، لقلنا إن مدرسة فرانكفورت امتداد و إحياء لفلسفة كانط »(5)، لأنها سارت على هدى الخط الذي شقه كانط، عندما أعلنت أنها نظرية نقدية في المقام الأول، وليست نظرية في المعرفة أو الحقيقة، فهي «محاولة جادة لإيجاد بديل نظري نقدي واضح المعالم للوقوف أمام التيارات الفكرية والفلسفية التقليدية »(6).

(1) هانس يورج زاند كولر، كانط والنقد..ثورة في طريقة التفكير وفلسفة الديمقراطية، ترجمة :خيرة عماري،مجلة أيس العدد 03، دار الأخبار للصحافة، الجزائر، 2009، ص 11.

(2) عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كانط في مواجهة الحداثة، المرجع نفسه، ص 60.

(3)عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كانط في مواجهة الحداثة، المرجع نفسه، ص 61.

(4) محسن الخوني، التنوير والنقد منزلة كانط في مدرسة فرانكفورت مرجع سابق، ص48.

(5) المرجع نفسه، ص 49.

(6) إبراهيم الحيدري، النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة، الطبعة الأولى، دار الساقي، لبنان، 2012، ص 122.

إن النقد الذي أعلنه كانط، لم يكن بمعنى فلسفي تماما، وإنما اتخذ بعده العملي أيضا، فقد أحدث قطيعة مع الفلسفات التي سبقته، لأنه أصبح ضرورة للخروج من الأزمة التي أصبح يتخبط فيها العقل في جانبه النظري، كما في جانبه العملي.

فأما الجانب النظري فقد تجلى المأزق في قصور كل من العقلانية والتجريبانية عن «إدراك الحقيقة بسبب اعتماد كل منهما على طريق واحد من طرق الحقيقة، فواحدة تعتمد مغالاة مفرطة على العقل والأخرى على التجربة، الأمر الذي جعلهما يعجزان عن تقديم الحل الشافي لإشكالية المعرفة الإنسانية»(1)، وعلى العكس من ذلك حاول "كانط" تجاوز هذا الصراع عندما أعلن أن مرتكزات هذا الحل تكمن في العقل والتجربة معا.

أما الجانب العملي فقد تجلى المأزق في عجز المذاهب الأخلاقية التقليدية، عن تأسيس حقيقي للقيم الأخلاقية، أين عمد كانط إلى تقويض فلسفتهم، وكشف ضعف منطقهم وتهافت حجتهم، وقد أشرنا إلى ذلك بالتفصيل في الفصل الأول من هذا البحث.

إن المنحى الذي سلكته النظرية النقدية، لم يخرج عن المسار الكانطي، فقد ارتبط اسمها بالبحث الاجتماعي، فهي قبل كل شيء نظرية نقدية للمجتمع تركز على الجانب الاجتماعي العملي في السلوك، وتمارس النقد كضرورة للخروج من الأزمة التي يتخبط فيها العقل والحضارة، وكأننا أمام قرابة شديدة بين مشروع جدلية التنوير والنظرية النقدية وكأن "هوركهايمر"و "أدورنو" يترسمان خطوات كانط في أكثر من نقطة، في ربط التنوير بالعقل وفي ممارسة النقد كمنهج لتجاوز أزمات العقل البشري(2).

إذا كان "كانط" قد احدث تغييرا أساسيا في طرق التفكير، حين أدمج مفهوم النقد، وأعلنه معولا هداما لأوثان الخرافة و السحر و الخوف، و أشكال الوصايا الميتافيزيقية واللاهوتية من أجل تحرير العقل من حالته السلبية، والدفع به كي يمارس حريته، و يعيد ترتيب علاقته بالدين والميتافيزيقا، الطبيعة والأخلاق، عندما يشيد الأسس التي يرتكز عليها بيت الحقيقة، فكذلك النظرية النقدية بدورها اتخذت من النقد قاعدة جوهرية لها «إزاء أوضاع ألمانيا والتحولات

(1) الشريف زيتوني، ، مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، تصدير/ د محمود يعقوب، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص 161.

(2) محسن الخونى، المرجع نفسه، ص161.

الفكرية والسياسية في المجتمع الحديث»(1)، فالبعد النقدي «يأخذ مصداقيته حين يقترن بالحذر من كل أشكال الميتافيزيقا، وفلسفات الهوية والنزعات النسقية التي تستلهم منهجا جدليا مفتوحا، وحينما يمارس فعله ضد اختصاصات متعددة»(2).

هذا وإذا كان "كانط" قد كشف عن هذيان العقل النظري وتناقضه عند الخوض في المسائل الميتافيزيقية، مما يتوجب عليه أن يعرف قدراته فلا يتجاوز حدوده، ومنزلته التي تتحدد بحسب موضوع بحثه، فكانت مرتكزات الحل (الميتافيزيقي) في مسلمات العقل العملي «فالعقل الذي يدخل في تناقض مظهري مع ذاته لا يجد خلاصه أو شفاءه إلا بتقويض أمر النقيضات إلي العقل العملي الذي يوجد مصالحة العقل مع ذاته و ليس مع الواقع»(3). فكذلك عمدت النظرية النقدية بدورها إلى كشف فظاعات العقل الأداتي داخل النظام الاجتماعي، فالعقل الذي يتحول إلى فاعل أداتي يفقد عقلانيته ويصبح عنصرا لاعقلانيا لأنه يفرز بربرية جديدة أساسها المعرفة التقنية، التي تصير عقلانية سياسية تحد من فردا نية الفرد وتقيد سلوكه ورغباته.

3 ـ الإيتيقا ومطلب الموضوعية: براديغم الذات و براديغم الحوار:

إن المسعى الجاد الذي أراده كل من "كارل اوتو ابل" من خلال التداولية الترنسندنتالية و"يورغن هبرماس" من خلال التداولية الشاملة، يوضح بعمق انحيازهما للإرث الفلسفي الكانطي، فقد رأى كل من المفكرين ضرورة التركيز على فكرة الموضوعية العملية كما أقرها "كانط" بإضفاء الصبغة الكونية على القيم الأخلاقية والتأصيل الحقيقي للعقل العملي، من هذا الهدف المشترك يمكن القول: إن إيتيقا الحوار تسعى بحرص شديد إلى إعادة بناء إيتيقا كانط من خلال:

ـ فعل التواصل الذي يعني كما يرى «"جان كازنوف" جعل الشيء مشتركا أي الانتقال من حالة فردية إلى حالة جماعية اجتماعية عبر الفعل اتصل الذي يتضمن من بين ما يتضمن الإخبار، الإبلاغ و التخاطب، كما يقوم بنقل الرسائل والرموز المحملة بالدلالات والمملوءة

(1) المرجع نفسه، ص 17.

(2) المرجع نفسه، ص 18.

(3)المرجع نفسه، ص 24.

بالإيحاءات، ثم إن التواصل بما هو نشاط تبادلي وعقلاني فإنه يتم بصور شتى كالأصوات، الإشارات و الصور، ولكن التواصل اللغوي يبقى أرقى أنواع التواصل»(1).

إن "هبرماس" كثيرا ما حاول أن يوضح أن«الإنسان كائن إيتيقى تواصلي، انطلاقا من أن التواصل بمختلف تجلياته المادية والدلالية هو رمز دال من رموز المرحلة المعاصرة»(2).

ـ ومن خلال تمجيد الأخلاقية الكانطية في صياغتها للأمر القطعي، كقانون كوني بفضله يمكن تحقيق ضرورية وكلية القيم الأخلاقية، أي كونيتها بتجاوز كل ما هو فردى ذاتي وتقني مصلحي. «فالفعل الأخلاقي هو دائما ذلك الفعل الذي لا يقبل الاستثناءات أو التغير، و إنما يسري على كل الكائنات العاقلة، فهو قانون كوني و ليس مرتبطا بأي ظرف أو حالة استثنائية»(3)، من هذا المنظور يتبين أن إيتيقا الحوار عملت على تأصيل الموضوعية والصورة الكونية، المستمدتين من الفلسفة الكانطية، وذلك من خلال بلورة معنى الأمر القطعي على ضوء المنعرج اللغوي كمعيار يمكن أن يحقق الاتفاق والكونية المتضمنة في الأمر القطعي. فبصرف النظر عن مختلف التأويلات والمناهج التي يتم بواسطتها مقاربة مسألة اللغة، فقد أجمعت كلها على أن اللغة تمثل أرقى أنواع التخاطب والتواصل(4). خاصة أنها الوسيلة المثلى التي تستطيع أن تحقق الحوار الحجاجي و تخلق نوعا من التفاعل بين الذوات بتجاوز سؤ الفهم وتحسين التواصل بين البشر.

إن الفكر الايتيقي المعاصر أصبح يفترض منعطفا جديدا، من براديغم الذات إلى براديغم الحوار والعلامات اللسانية، إذ في وسع المفكر أن يتوجه شطر الاتصال والتأويل، «فاللغة تحيل على الاتفاق على القبول على الاتصال الشفاف، على الاختيار المستنير لجملة أفراد يتحاورون»(5).

من الواضح أن مسألة إرساء الموضوعية العملية والتأسيس الكوني للقيم الأخلاقية، سؤال مازال يحظى باهتمام بالغ في الحوار الفلسفي الألماني، فإذا لا حظنا كيف اشتغل "كانط"

(1) يورغن هابرماس، إيتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ترجمة: عمر مهبل، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف الجزائر، 2010، ص 8 / 9 .

(2) المرجع نفسه، ص 8 .

(3) سمير بلكفيف، ايمانويل كانط فيلسوف الكونية، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، 2011، الجزائر، ص 21 .

(4) يورغن هابرماس، إيتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، مرجع سابق، ص 09 .

(5) جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة: عادل العوا، الطبعة الأولى، عويدات للنشر والطباعة، لبنان، 2001، ص 75.

على فكرة صياغة مبادئ راسخة في المجال العلمي والأخلاقي، من أجل تأسيس فعلي ومشروع للقيم الأخلاقية، بتجاوز كل بعد نسبي. فإن بلوغ المعنى الحقيقي لمفهوم الإيتيقا بما هو «بحث في التأصيل الفلسفي واستكشاف لعلوم الإنسان المتعلقة بالقيم السلوكية »(1) مفهوم أخذ يتجدد استكمالا للمشرع الإيتيقي الكانطي، وتحقيقا لمطلب الموضوعية والكونية كما أقرته الحداثة، سعى منظرو إيتيقا الحوار إلى تحديد الشروط الجوهرية للأخلاقية «فقد حاول "ابل" في كتابه " إيتيقا المناقشة " أن يضع لنا خريطة طريق لما يمكن أن نسميه نظرية إيتيقية ترنسندنتالية، يمكن لكل مسكون بالبحث في مجال القيم والمعايير أن يسترشد بها»(2)، حيث وضع في الفصل التمهيدي من كتابه، مجموعة متطلبات يمكن للإيتيقا المناقشة أن تستوفي شروطها من خلالها، وسنلاحظ كيف أنها تتقاطع في أكثر من مسألة مع المتطلبات التي حددها "كانط"، ومنها :

1 ـ على «إيتيقا المناقشة أن تقر بأن اللجوء إلى مؤثرات أخلاقية مصطنعة يعني ولوج مجال يتناقض مع وضعها الخاص، فمفاهيم مثل الشفقة، التعاطف، الحب، الكرم لا يمكن النظر إليها بوصفها مبادئ بديلة لإرساء أخلاق معينة، مع ذلك يمكن النظر إليها على أنها مصادر محفزة ضرورية في مستوى الممارسة التجريبية»(3)، إن خطابا من هذا النوع يذكرنا بالخطاب الكانطي عندما عمد إلى نقد الفلسفات الأخلاقية التقليدية التي ربطت القيم الأخلاقية بمقولات الوجدان والعاطفة والشعور، ومبدأ السعادة. يقول كانط: «إن مبدأ السعادة بوسعه أن يكون قاعدة، ولكنه لا يزودنا أبدا بمثل تلك القوانين التي تكون للإرادة الخيرة »(4).

2 ـ ضرورة الاتفاق الضمني بعدم انسياق العقل إلى مجرد القانون الطبيعي للأفراد والاعتراف الصريح بإدانة صورته الأداتية، و المصلحة الفردية، و الإقرار باحتمال أن لا تكون أخلاقية، نلاحظ كيف ينسحب هذا التأويل على المقاربة الكانطية خصوصا في أهم مسألة تقوم عليها الأخلاق الكانطية، وهي عدم إمكانية «تصور إلزام ذاتي داخل الأفعال التقنية والأفعال البرغماتية، لذلك لا يعتبر" كانط" القواعد المحددة لها قواعد عملية بالمعنى الدقيق العملي، ففي

(1) يورغن هابرماس ، المرجع نفسه، ص06.
(2) المرجع نفسه، ص10.
(3) يورغن هابرماس، إيتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، مرجع سابق، ص11.
(4) جمال محمد أحمد سلمان، انطولوجيا الوجود ايمانويل كانط، مرجع سابق، ص24.

هذه الأفعال يغيب مبدأ الحرية المتعالية وكذا الاستقلال الذاتي للإرادة، فلا يقوم الحقل العملي الأخلاقي إلا على أساس أفعال هي واجبات مطلقة»(1).

ما يمكن استخلاصه إذا هو أنه مهما كان شكل البراديغم، الذات أو الحوار، فنحن إزاء المطلب نفسه ، وهو مطلب الكونية الأخلاقية والموضوعية العملية، سواء تحقق عن طريق الأمر القطعي ونداء الواجب الأخلاقي كما هو الشأن عند "كانط"، أو عن طريق الحوار بمشاركة أفراد المجتمع مشاركة فعلية كما أقره "هابرماس" على إثر "ابل ".

4 ـ كانط في الفكر العربي المعاصر:

إن حضور الفكر الفلسفي الكانطي في الفكر العربي المعاصر لا يقل عن حضوره في الفكر الغربي، «حيث تمتلك فلسفته العقلانية النقدية المنفتحة قدرة على إثارة الفكر وتوليد الأفكار، بحيث يصبح التفاعل معها واستلهامها منبعا خصبا للمفكرين والفلاسفة العرب لطرح الأسئلة ومناقشة القضايا الهامة، وإيجاد رؤى فلسفية متميزة انطلاقا من المشكلات التي قدمتها الفلسفة النقدية »(2).

الحقيقة أننا لسنا بصدد إحصاء شامل لكل ما كتبه الدارسون العرب المتفلسفون عن كانط شرحا وتفسيرا وإحصاءا و تأويلا لنصوصه الفلسفية، وإنما غرضنا يتجه إلى رصد حضور الخطاب الكانطي في الفكر العربي المعاصر وكشف راهينيته. فأين يتجلى الخطاب الكانطي في الفكر العربي المعاصر؟

يمكن أن نلاحظ الحضور الكانطي في الفكر العربي المعاصر ظاهرا في أكثر من عمل:

ـ في ذيوع المصطلح الفلسفي الكانطي وتوظيفه في أكثر من دراسة و عمل فلسفي عربي، خير دليل على موقع هذا الفيلسوف داخل النص الفلسفي العربي المعاصر فاستعمال «النقد الذاتي "لعلال الفاسي" والنقد المزدوج " لعبد الكبير الحطيبى" والنقد الحضاري "لهشام شرابي"ونقد العقل العربي" لمحمد عابد الجابري" ونقد العقل الغربي" لمطاوع صفدي"»(3) مثال واضح عل ذلك، و هذا على سبيل الذكر لا الحصر.

(1) عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كانط في مواجهة الحداثة، مرجع سابق، ص 124.

(2) أحمد عبد الحليم عطية، كانط وانطولوجيا العصر، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، 2010، ص 09.

(3) المرجع نفسه، ص 11.

ـ في بعض المحاولات الفلسفية العربية المعاصرة، التي اهتمت بالبحث في قضايا التراث «وموضوع الأصالة والمعاصرة، وفي منهج التأثر والتأثير، والتي وجدت في دراسة كانط مجالا لعقد مقارنات بينه وبين الفلاسفة العرب المسلمين، من أمثال "الغزالي" و "ابن رشد"، معتقدة أن مثل هذه الدراسات ستؤصل للفلسفة العربية الإسلامية بإزاء كانط الألماني»(1)، ويظهر هذا التأثر في «مناقشة إشكالية التنوير مقابل التراث العرفاني، بمقابلة التفكير الإشراقي الصوفي بالتفكير العقلاني، حيث توقف "ناصيف نصار" أمام فيلسوفين أثر كل منهما في تراثه للإجابة عن سؤال كيفية تحقيق النهضة العربية الثانية في دراسة كانط والغزالي»(2).

ـ في بعض الاجتهادات العربية التي حاولت انطلاقا من فلسفة "كانط" «تقديم رؤى فلسفية يمكن تسميتها مذاهب فلسفية أو عناصر أساسية في المذهب الفلسفي، كما يتمثل ذلك في محاولة " زكي نجيب محمود" في الجبر الذاتي و"توفيق الطويل" فيما أطلق عليه المثالية المعدلة في الأخلاق»(3).

يخصص "توفيق الطويل" الفصل الأخير من كتابه الرئيسي "فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها" لتوضيح نظريته الأخلاقية التي أطلق عليها اسم "المثالية المعدلة"، حيث ينطلق من مثالية كانط الأخلاقية أساسا متجاوزا مجمل الانتقادات المختلفة التي وجهت إلى فلسفته يقول "توفيق الطويل": «وقفنا على أظهر مذاهب الفلسفة الخلقية إبان تاريخها الطويل ونريد الآن أن نعرف أي هذه المذاهب أوفى بمطالب الأخلاقية وأدنى إلى تحقيق مقتضياتها، وأن نسجل ما يبدو لنا أصدق تعبيرا عن الكمال الخلقي المنشود، وقد قلنا في مقدمة الكتاب وفي تعقيباتنا التي ذيلنا به فصوله: « إنا ندين بالولاء لنوع من المثالية المعدلة التي برئت من التزمت وتحررت من قيود النزعة الصورية التي شابت المثالية الكانطية المتطرفة»(4)، ويضيف قائلا: « تهدف المثالية المعدلة إلى تحقيق الذات بإشباع قواها الحيوية دون جور على قيم المجتمع أو استخفاف بمعاييره، لأن

(1) حسين مجيد ألعبيدي، من الأخر إلى الذات دراسات في الفلسفة الحديثة و المعاصرة والفكر العربي المعاصر، الطبعة الأولى، دار الطليعة و النشر، بيروت، 2008، ص 135.

(2) أحمد عبد الحليم عطية، كانط وانطولوجيا العصر، المرجع نفسه، ص 11.

(3) أحمد عبد الحليم عطية، كانط وانطولوجيا العصر، مرجع سابق، ص 10.

(4) توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960، ص 343.

الإنسان في هذه المثالية يبدو فردا في أسرة، ومواطنا في امة، وعضوا في مجتمع إنساني»(1)، فالإنسان في هذه المثالية يبدو كلا متكاملا يجمع بين العقل والحس، ويرتبط كمال الفرد بكمال المجموع الذي ينتمي إليه.

أما عن كانطية "زكى نجيب محمود" فتظهر في سياقات متعددة من كتاباته وخصوصا أطروحته حول " الجبر الذاتي"، فقد تأثر صاحب هذه النظرية بمقولة كانط الأخلاقية القائمة على مفهوم الذات العاقلة وفكرة الإرادة، يقول: «إن المعيار الخلقي الذي آخذ به واعتبره صادقا هو الآتي: إن الذات الحقة هي التي يمكن أن توصف حقا بأنها ذات عاقلة، وأنها ذلك العالم الذي نشغله في أعمق لحظات حياتنا حكمة وروية وبصيرة»(2)، يبدو "زكى نجيب محمود" وكأنه يسير على خط الأخلاقية الكانطية ويكاد يقترب من قوله بالذات المثالية فالأخلاق عنده تعنى «السلوك تحت سيطرة العقل وهو مصدر التشريع، فهو ملك ومواطن في مملكة الأخلاق وجمهورية العقلاء والأفعال الحرة، فالإنسان مصدر القانون الذي يشرعه لنفسه وحريته نابعة من داخله، فالإرادة حرة ومشروطة»(3)، من الواضح أن القول بحرية الإرادة كأساس للقيم الأخلاقية، يؤكد كانطية زكى نجيب محمود إلى حد بعيد، قد يحتاج هذا الكلام إلى توضيح أكثر:

يقصد "زكى نجيب محمود" بقوله: إن الإرادة حرة ومشروطة في الوقت نفسه أي أنه من الممكن أن يكون للإرادة سبب في سلوكها الأخلاقي، ولكن هذا السبب هو الفاعل الأخلاقي نفسه، وكأن الأسباب التي تقوم وراء الإرادة هي مقدمات تقوم في طبيعة الإرادة وطبيعة الفاعل الأخلاقي، حريتها تكمن في عدم تقيدها بباعث خارج الإرادة ذاتها «فبمقدار ما يكون الفاعل مكتفيا بذاته في تفسير الفعل الإرادي فهو حر إلى هذا الحد في هذا الفعل، بإنجازه له على هذا النحو يكون محددا بذاته أو مجبرا ذاتيا»(4) هذا ما يعنيه "زكى نجيب محمود" بالجبر الذاتي، يذكرنا هذا الموقف الفلسفي بموقف كانط من الإرادة الطيبة التي تستمد حكمها الأخلاقي من ذاتها فلا تتقيد بباعث خارجي أو تقع تحت سيطرة نزوة عابرة، حرة مستقلة فهي المشرع والمشرع له في الوقت نفسه.

إن راهنية كانط تستمر أكثر في رسم معالم فلسفة "زكى نجيب محمود" الأخلاقية ليس فقط في تمييزه بين عالم الطبيعة الموضوعي وعالم الأخلاق الذاتي، عالم الحرية الفردية والإرادة

(1) المرجع نفسه، ص 346.

(2) أحمد عبد الحليم عطية، المرجع نفسه، ص39.

(3) أحمد عبد الحليم عطية، مرجع سابق، ص 39. 40.

(4) المرجع نفسه، ص 40.

الخيرة، وإنما في رفضه تأسيس القيمة الأخلاقية على المنفعة أو المصلحة الذاتية وإقامتها على الواجب.

ـ الخاتمة:

ختاما يمكن القول أنه رغم تميز الفكر الفلسفي عموما بانفتاحه وتفاعله مع أشكال التراث البشري في صيرورته التاريخية، إلا أن قوة الخطاب الكانطي على فرض وجوده كانت حاضرة ومتميزة على الدوام أيضا، سواء على مستوى جهازه المفاهيمي أو نسقه الفكري أو باراديغمه النقدي، وربما يعود ذلك إلى:

ـ ثراء اللغة الألمانية ومطلقية فكرها المنفتح على المثالية والتأويل، ما جعله قابل لأن ينطبق على فلسفات متباينة، أكثر من أن ينحصر في مذهب بعينه، لأنه يتيح فرصة التوجه نحو الإمكان بدل التقيد بمحدودية الواقع.

ـ أصالة الطرح الكانطي في إحداثه لمفهوم النقد الذي يعني رفض الاستكانة والمهادنة ومحدودية الرؤية، ويدعو في المقابل إلى الانتقال من نقد الواقع إلى نقد الفكر ذاته، حتى صار هناك نقد للعقل الخالص ونقد للعقل العملي، والعقل الأداتي، والديني، والعربي، وهو الخط الذي حرصت على إتباعه واستكماله الفلسفات الثورية والتحررية الواعدة.

ـ انفتاح الفلسفة الكانطية على مجالات الثقافة كلها لا على نظرية المعرفة فقط، فقد انخرطت في مناقشة حدود المعرفة والعقل والفهم والأخلاق والفن والميتافيزيقا والسياسة والدين وقيم الحرية والسلام، ما جعلها أرضا خصبة للكثير من الفلسفات والعديد من الرؤى والنظريات الراهنة